الاستدلال بتنزيه الشارع

هاجر بنت علي الدخيّل

شبكة الألوكة
www.alukah.net

الاستدلال بتنزيه الشارع

هاجر بنت علي الدخيّل

حقيقة الاستدلال بتنزيه الشارع ونشأته وعلاقته بالعلوم الأخرى

وفيه أربعة مباحث:

المبحث الأول: حقيقة الاستدلال بتنزيه الشارع.

المبحث الثاني: الألفاظ ذات الصلة بالتنزيه.

المبحث الثالث: نشأة مصطلح التنزيه.

المبحث الرابع: علاقة الاستدلال بتنزيه الشارع بالعلوم الأخرى.

المبحث الأول

حقيقة الاستدلال بتنزيه الشارع

أولًا: التنزيه:

التنزيه لغة:

من نزّه يُنزّه تنزيهًا، والأصل: نَزه، (والنون والزاء والهاء) أصل يدل على بُعد في مكانٍ وغيره، ورجلٌ نزيه الخلق: بعيد عن المطامع الدنيّة [١]، ويقال: نزَّه نفسه عن القبيح: أبعدَها عنه [٢]، والتنزّه: أن يرفع نفسه عن الشيء تكرمًا ورغبة منه، وتنزّيه الله: تبعيده وتقديسه عن الأنداد والأضداد [٣].

التنزيه اصطلاحًا:

لم أجد من عرف التنزيه بمعناه الاصطلاحي إلا الجرجاني حيث قال: " التنزيه: عبارة عن تبعيد الرب عن أوصاف البشر"[٤]، وهذا التعريف خاص بتنزيه الله عزوجل، رغم أن اللفظة عامة في معناها كما مر في التعريف اللغوي، ويمكن أن يُعرّف التنزيه بمعناه الاصطلاحي: تبرئة الشيء ورفعه عما يُدنسه ولا يليق به [٥].

---

(١) ينظر: مقاييس اللغة (٤١٧/٥)، تاج العروس (٥٢٣/٣٦)، مادة: (نَزه)

(٢) ينظر: الصحاح تاج اللغة (٢٥٣/٦)، تاج العروس (٥٢٣/٣٦)، مادة: (نَزه)

(٣) ينظر: تهذيب اللغة (٩٢/٦)، تاج العروس (٥٢٥/٣٦)، مادة: (نَزه)

(٤) التعريفات (٦٧)

(٥) ينظر: تنزيه الشارع والاستدلال به على المسائل الأصولية، مجلة الدراسات العربية في كلية دار العلوم بجامعة المينا (١٨١٦)

ثانيًا: تنزيه الشارع:

وهو: تبرئة الله عز وجل وتعظيمه عن كل ما يُتوهم مما لا يليق بأُلوهيته شرعًا.

ثالثًا: الاستدلال بتنزيه الشارع:

وهو: نصب الدليل على أن الله عزوجل مُبرأٌ ومعظمٌ عن كل ما يُتوهم مما لا يليق بأُلوهيته شرعًا.

محترزات التعريف:

(الله عزوجل) أي: المتعلقة بالحق عز وجل، وهذا القيد أخرج تنزيه المخلوقات.

(شرعًا) أي: التنزيه المستند إلى أصلٍ شرعي، وهذا القيد أخرج التنزيه المجرد الذي لا يستند إلى اعتبار شرعي، كالتنزيه العقلي والعرفي.

المبحث الثاني

الألفاظ ذات الصلة بالتنزيه

هناك ألفاظ لها صلة بلفظ التنزيه، كلفظ التقديس، والتبرئة، والصيانة، والعصمة، سأذكرها وأذكر الفرق بينهما وبين لفظ التنزيه.

اللفظ الأول: التقديس:

التقديس لغةً:

من قدّس يقدّس تقدّيسًا، والتقديس يعني: التطهير [١]، وتقديس الله: تعظيمه وتنزيهه عما لا يليق بألوهيته [٢]، والتقديس يُستعمل أيضًا في المخلوقات العاقلة، وغير العاقلة.

أولًا: المخلوقات العاقلة:

أ- الملائكة، قال تعالى: ﴿وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾[٣] أي: الطُهر، وهو جبريل عليه السلام [٤].

ب- الإنسان، فيقال: فلان مُقدّس إذا أريد تبعيده عن مسقطات العدالة ووصفه بالخير [٥].

ثانيًا: المخلوقات غير العاقلة:

وهي: الأماكن، قال تعالى حكاية عن موسى -عليه السلام-: ﴿يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُواْ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ﴾[٦] أي: المطهرة، وقيل: المباركة [٧].

---

(١) ينظر: جمهرة اللغة (٦٤٦/٢)، مختار الصحاح (٢٤٨)، مادة (قدس)

(٢) ينظر: تهذيب اللغة (٣٠٤/٨)، مقاييس اللغة (٦٤/٥)، مادة: (قدس)

(٣) سورة البقرة:٨٧.

(٤) ينظر: مختار الصحاح (٢٤٨)

(٥) ينظر: معجم الفروق اللغوية (١٢٥)

(٦) سورة المائدة:٢١

(٧) ينظر: جمهرة اللغة (٦٤٦/٢)، مادة (قدس)

التقديس اصطلاحًا:

هو: "تنزيه الحق عن كل ما لا يليق بجنابه من النقائص الكونية مطلقا ومن جميع ما يعد كمالات بالنسبة إلى غيره من الموجودات مجردة أو لا"[١]، وهذا التعريف خُص بالله -عز وجل- من باب أن التقديس غالبًا لله، وإلا فالأصل في لفظ التقديس العموم كما سبق في المعنى اللغوي.

العلاقة بين لفظ التقديس والتنزيه:

التقديس والتنزيه بمعنى واحد، والدليل على ذلك أنهم يعرفون التقديس بالتنزيه، كما فعل المناوي، والعسكري بقوله: " والتقديس: تنزيه الشيء عن النقوص"[٢]، وكذلك ابن السبكي بقوله: "ومعنى تقديس الله تنزيهه من كل ما لا يليق بكماله سبحانه وتعالى"[٣].

اللفظ الثاني: التبرئة:

التبرئة لغةً:

من برأ يبرأُ برءًا [٤]، (والباء والراء والهمزة) أصلان يدلان على معنيين [٥]:

الأول: الخلق، يقال: برأ الله الخلق يبرؤهم برءا، أي ميز صورهم.

الثاني: التباعد من الشيء ومزايلته، من ذلك البرءُ وهو السلامة من السقم، يقال: برئت وبرأت.

التبرئة اصطلاحًا:

لا يختلف المعنى الاصطلاحي للتبرئة عن المعنى اللغوي، فهو على حسب من يُبرأ ومما يُبرأُ.

---

(١) التوقيف للمناوي (١٠٦)

(٢) معجم الفروق اللغوية (١٢٥)

(٣) الابهاج (١٠/١)

(٤) المعجم الرائد (١٦٨) مادة: (برأ)

(٥) مقاييس اللغة (٢٣٦/١)، مادة: (برأ)، الفروق اللغوية (١٣٨)

العلاقة بين لفظ التبرئة والتنزيه:

التبرئة والتنزيه يجتمعان في معنى التباعد، وينفرد لفظ التبرئة بمعنى الخلق، وهو بهذا أعم من التنزيه.

اللفظ الثالث: الصيانة:

الصيانة لغةً:

من صان يصُون صونًا، (والصاد والواو والنون) أصل واحد، وهن كنٌّ وحِفظٌ [١]، ويقال: صان عرضه: أي: حماه ووقاه [٢].

الصيانة اصطلاحًا:

لا يختلف المعنى الاصطلاحي للصيانة عن المعنى اللغوي، فهو على حسب من يُصان ومما يُصان.

العلاقة بين لفظ الصيانة والتنزيه:

لفظ الصيانة لا يبعُد عن لفظ التنزيه، ويدل على ذلك استعمال بعض الأصوليين لفظ الصيانة إما مرادفًا للفظ التنزيه، أو بديلًا عنه:

أ- مرادفًا للفظ التنزيه: كقول السمرقندي: " فيجب تنزيه الشرع عن ذلك، فوجب القول بكون الحق واحدًا، ضرورة، تحققه أن ورود النص من الشرع لا يجوز بالنقيضين، فكذا لا يجوز بالقياس، فإن القياس ليس إلا العمل بدلالات النصوص، فكما يجب صيانة نص صاحب الشرع عن التناقض، يجب صيانة دلالة النص عن التناقض أيضًا"[٣].

ب- بديلًا عن لفظ التنزيه: كقول صفي الدين الهندي: "صيانة لكلام الشارع عن أن يكون (لغوا)"[٤]، وقول الطوفي: " صيانة منصب غالب الأنبياء عن هذه البلوى"[٥].

---

(١) مقاييس اللغة (٣/٣٢٤)، مادة: (صون)

(٢) ينظر: تهذيب اللغة (١٢/١٦٩)، لسان العرب (١٣/٢٥٠)، مادة: (صون)

(٣) ميزان الأصول (١/٧٥٨)

(٤) ينظر: الفائق (٢/٢٦١)

(٥) شرح مختصر الروضة (٢/٧٠١)

اللفظ الرابع: العصمة:

العصمة لغةً:

من عَصم يعصِمُ عصمًا، والعصمة تعني: المنع والحفظ والوقاية، وعصمة الله عبده: أن يمنعه مما يوبقه، ويقال: اعتصمت بالله أي: امتنعت بلطفه من المعصية [١].

العصمة اصطلاحًا:

هي: "ملكة اجتناب المعاصي مع التمكن منها"[٢]، وهذا التعريف عام لكل معصوم، والعصمة الخاصة بالأنبياء -صلوات الله عليهم- هي: لطف من الله -سبحانه وتعالى- يحمل الأنبياء على فعل الخير، ويزجرهم عن فعل الشر، مع بقاء الاختيار لهم تحقيقًا للابتلاء [٣]، والفرق بين عصمة العامة وعصمة الأنبياء: أن عصمة الأنبياء -عليهم السلام- تُعرف بطريق الوجوب، وعصمة غيرهم تُعرف بطريق الجواز [٤].

العلاقة بين لفظ العصمة والتنزيه:

لفظ العصمة لا يبعد عن لفظ التنزيه، كلاهما يستخدم في الإبعاد عما يشين.

---

(١) ينظر: مختار الصحاح (٢١١)، لسان العرب (١٢/٤٠٣-٤٠٤)، المصباح المنير (٢/٤١٤)

(٢) التعريفات (١٥٠)

(٣) ينظر: نسيم الرياض في شرح شفاء القاضي عياض (٤/٣٩)

(٤) ينظر: فتح الباري (١١/٥٠٢)

المبحث الثالث

نشأة مصطلح التنزيه

نشأ مصطلح التنزيه في عصر ازدهار التدوين في علم أصول الفقه، وذلك في القرني الرابع والخامس الهجري، حيث شهدت هذه الفترة امتزاج علم الكلام بالتدوين الأصولي، وذلك من جهة المسائل، والمناهج، والمفردات، وكان من المفردات مفردة "**التنزيه**"، ولم تكن تستعمل بكثرة، فقد كانت تُذكر في كتب الأصوليين مرتين أو ثلاث مرات، وبيانه كالآتي:

أ- قول الجصاص (ت ٣٧٠) في مسألة حكم الأشياء المنتفع بها قبل ورود السمع: " أن يكون الله تعالى خلقها لا لينفع أحدا، وهذا عبث وسفه، والله تعالى منزه عنه"(١).

ب- قول أبي زيد الدبوسي (ت٤٣٠) في مسألة شرع من قبلنا: "الرسول صلى الله عليه وسلم فيما يحكى لنا منزه عن تهمة الكذب من كل وجه"(٢).

ت- قول ابن حزم (ت٤٥٦) في منعه لنسخ الخبر الوارد في القرآن الكريم: "أما ما كان خبرا مجردا..... لا يجوز النسخ فيه البتة لأنه تكذيب لهذا الخبر والله تعالى منزه عن الكذب"(٣).

ث- قول أبي يعلى (ت٤٥٨) في مسألة جواز ورود المتشابه في القرآن الكريم: "لأنه قد نصب لنا أدلة تدلنا على أنه منزه عن التشبيه، وأنه أراد بكلامه التأويل"(٤).

ج- قول إمام الحرمين (ت٤٧٨) نقلًا عن مانعي نسخ القرآن بالسنة: " لو نسخ الرسول صلى الله عليه وسلم حكما ثابتا بالقران أفضى ذلك إلى أن ينسب إلى الافتراء وتبديل كلام الله تعالى، وهذا يفضي إلى ما يجب تنزيه الرسل عنه"(٥).

---

(١) الفصول في الأصول (٣/٢٤٨)

(٢) تقويم الأدلة (٢٥٥)

(٣) الإحكام (٤/٧٢)

(٤) العدة (٢/٦٩٣)

(٥) التلخيص (٢/٥١٦)

ح- قول السرخسي (ت٤٩٠) في بيان أقسام الشرط: "وكلام الله تعالى منزه عن هذا بل فيه فائدة الشرط"[١].

ثم بدأ المصطلح يزدهر بعد هذه الفترة، فالغزالي مثلًا (ت٥٠٥) استعمل مصطلح (التنزيه) غير مرة في كتابيه المنخول والمستصفى، وكذلك ابن عقيل(ت٥١٣) في كتابه الواضح استعمل مصطلح (التنزيه) في ثمانية مواضع، والآمدي(ت٦٣١) في إحكامه استعمل مصطلح (التنزيه) في ستة مواضع، والبخاري(ت٧٣٠) في كتابه كشف الأسرار استعمل مصطلح (التنزيه) في سبعة عشر موضع، والزركشي (ت٧٩٤) في كتابه تنشيف المسامع استعمل مصطلح التنزيه في أحد عشر موضع.

(١) أصول السرخسي (٣٢١/٢)

المبحث الرابع:

علاقة الاستدلال بتنزيه الشارع بالعلوم الأخرى

وفيه مطلبان:

المطلب الأول: علاقة الاستدلال بتنزيه الشارع بعلم الكلام.

المطلب الثاني: علاقة الاستدلال بتنزيه الشارع بعلم مقاصد الشريعة.

المطلب الأول

علاقة الاستدلال بتنزيه الشارع بعلم الكلام

علم الكلام علمٌ يتعلق بمعرفة الله -عز وجل-، والعلم بأسمائه، وصفاته، وما يوصف به -سبحانه وتعالى- بصفات الكمال، وما ينزهه عن ضدها، فالصفات التي أثبتها الله -عز وجل- لنفسه أو أثبتها له رسوله-صلى الله عليه وسلم- فهي تثبت على وجه الكمال، لا يشوبها نقص، ولا يعتريها عيب [(١)]، والاستدلال بتنزيه الشارع مبني على معرفة أسماء الله تعالى وصفاته، وما يجب له من صفات الكمال إثباتًا ونفيًا، إذًا فالاستدلال بتنزيه الشارع متوقف على علم الكلام، والدليل على ذلك ما يلي:

أ- يقول القرافي في مسألة شكر المنعم: "لا تعود الفائدة على المشكور لتنزه الله تعالى عن جلب المنافع، لا يتم مع المعتزلة، فإن عدتهم تقتضي أن الله تعالى حكيم، وحكمته البالغة تقتضي أن من كماله رعاية المصالح، وأن عدم مراعاتها مخل بالكمال الإلهي، وإذا راعاها حصل الكمال الإلهي، ولا شك أن كمال الله تعالى عائد لجلاله وذاته، ولا يمكن أن يقال: هو منزه عنه، بل ثبوت هذا له عندهم كثبوت العلم، والقدرة وغيرهما من صفات الكمال، وترك هذا التنزيه عندهم تنزيه"[(٢)]، فالاستدلال بالتنزيه في مسألة شكر المنعم مبنيٌ على إثبات صفة الحكمة لله عز وجل، وهذا متعلق بعلم الكلام.

ب- يقول ابن عقيل في مسألة أن يأمر الله تعالى بما يعلم أن المأمور لا يفعله: "وهو أنَ الأمرَ لمن يُعلم أنه لا يُطيع عَبَث، واللهُ سبحانه مُنزهٌ عن العَبثِ في قوله وفعلِه؛ ..... فأما إذا صرف بحقّ من لا يتحقق في حقِّه ذلك، خرج عن حَيِّز الأمرِ المشروعِ والقانونِ الموضوع

(١) ينظر: مجموع الفتاوى (٩٨/١٦)

(٢) نفائس الأصول (٣٩٢/١)

على مقتضى الحكمة"[1]، وإثبات الحكمة لله وتنزيه عن العبث في قوله وفعله مستمد من علم الكلام.

(١) الواضح (١٨٨/٣)

المطلب الثاني

علاقة الاستدلال بتنزيه الشارع بعلم مقاصد الشريعة

تظهر علاقة الاستدلال بتنزيه الشارع بعلم مقاصد الشريعة من خلال أمرين:

الأمر الأول: تنزيه الله -جل شأنه- عن صفات النقص، واتصافه بصفات الكمال، مقصد من مقاصد الشريعة الإسلامية، وثبت ذلك بالاستقراء والأدلة من وجوه:

الوجه الأول: وصف الله عز وجل نفسه بصفات الكمال، قال تعالى: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلۡخَٰلِقُ ٱلۡبَارِئُ ٱلۡمُصَوِّرُ لَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ﴾(١)، وقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ فَٱدۡعُوهُ بِهَاۖ﴾(٢)، بيّن الله -سبحانه وتعالى- بأن له الأسماء الحسنى، كالحكيم، والعزيز، ونحوه، وإذا كان الله متصفًا بغاية الكمال في الحسن، لزم انتفاء ما يضاد الحسن من الأوصاف الناقصة (٣).

الوجه الثاني: أسماء الله التي تدل على كماله، وبراءته من النقائص، ومن تلك الأسماء:

أ- القدوس، قال تعالى: ﴿ٱلۡمَلِكِ ٱلۡقُدُّوسِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ﴾(٤)، يقول ابن كثير: " القدوس، أي المنزه عن النقائص الموصوف بصفات الكمال"(٥).

ب- الصمد، قال تعالى: ﴿قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ﴾(٦)، أي: الكامل في جميع صفاته وأفعاله، والسيد الذي ليس فوقه أحد وهو الملجأ عند الشدائد والحاجات (٧).

---

(١) سورة الحشر:٢٤

(٢) سورة الأعراف:١٨٠

(٣) ينظر: مجموع الفتاوى (٨٤/٣)

(٤) سورة الجمعة:١

(٥) تفسير ابن كثير (١٤١/٨)

(٦) سورة الإخلاص:١-٢

(٧) ينظر: مجموع الفتاوى (٢١٦/١٧)

ت- الحميد، قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ﴾(١)، يقول الخطابي: "المحمود الذي استحق الحمد بفعاله... وهو الذي يحمد في السراء والضراء، وفي الشدة والرخاء، لأنه حكيم لا يجري في أفعاله الغلط، ولا يعترضه الخطأ"(٢).

الوجه الثالث: تسبيح الله -سبحانه وتعالى- نفسه والأمر بتسبيحه، قال تعالى: ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ (٣)، وقوله تعالى: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ (٤)، يقول ابن الأثير: "وأصل التسبيح: التنزيه والتقديس والتبرئة من النقائص"(٥)، وإذا نفيت النقائص عن الله لم يبقَ في صفاته إلا الكمال، يقول ابن تيمية: "والأمر بتسبيحه يقتضي أيضا تنزيهه عن كل عيب وسوء وإثبات صفات الكمال له"(٦).

الأمر الثاني: علم مقاصد الشريعة موضوعٌ عن: الغايات والحكم التي يسعى الشارع إلى تحقيقها للعباد (٧)، فالشارع لم يضع حكمًا إلا وله غاية ومقصد؛ لأنه حكيم مُنزّه عن العبث في أحكامه، فإثبات الحكمة لله عزوجل وتنزيهه عن العبث في أقواله وأفعاله، إثبات بأن أحكامه عز وجل شُرعت لغايات ومقاصد.

---

(١) سورة فاطر:١٥

(٢) شأن الدعاء (٧٨/١)

(٣) سورة الصافات:١٨٠

(٤) سورة الأعلى:١

(٥) النهاية في غريب الحديث (٣٣١/٢)

(٦) مجموع الفتاوى (١٢٩/١٥)

(٧) ينظر: مقاصد الشريعة الإسلامية لابن عاشور (٢١/٢)، نظرية المقاصد عند الإمام الشاطبي (١٩)